

بحث في فونولوجيا اللغة العربية

أوديت بيتي

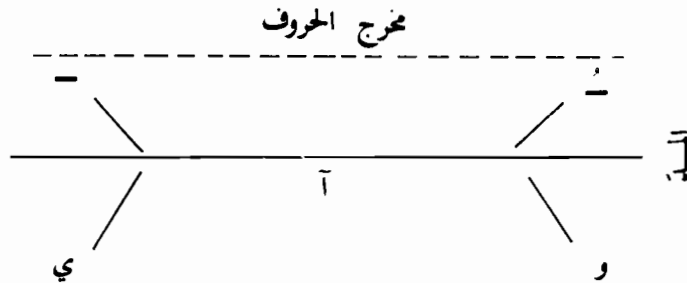
هذه الدراسة في نصها الأصلي كتبها الباحثة الفرنسية أوديت بيتي مساهمةً منها في هذا العدد الخاص. ونحن ننشر ترجمتها العربية هذه (النص الفرنسي لم ينشر بعد) دون تعديل في المصطلح العربي بحسب معجم المصطلحات الوارد في آخر هذا العدد. وذلك لأن الترجمة العربية تمت تحت إشراف الباحثة نفسها.

عناصر الوصف وفق الاستشراق الكلاسيكي^(١) :

الفونولوجيا هي الميدان الذي قطعت فيه اللسانيات مجموعات جزئية مغلقة تنجح في تحديد وحداتها ووظيفتها: ونعني بهذه المجموعات المنظومتين المصوتية (Vocalique) والصوامتية (Consonantique).

فاذا أخضعنا اللغة العربية إلى طرق التحليل التي استخدمتها المدرسة الفونولوجية الفرنسية لأ.مارتينيه^(٢) لأمكننا التوصل إلى أن منظومتها المصوتية تشتمل على ستة صويّات (Phonemes) . موزعة بالتساوي على ثلاثة صويّات قصيرة هي الكسرة والفتحة والضمة. التي تتميز في الطول وفي الكم عن الصويّات الطويلة الأخرى: الياء والواو والألف.

نحن اذن ازاء شكل ذي ثلاثة حدود تميزه خاصّة مخرج الحرف وخاصّة الطول التي تسمح بشطر المجموعة الجزئية الأولى بطريقة متساوية وفق الشكل التالي:



الشكل رقم (١) المنظومة المصوتية للغة العربية

يكشف لنا المخطط السابق عن أن المنظومة المصوتية للغة العربية تتميز بسهولة كبيرة مردّها أساساً إلى عدد المصوتات القليل بالنسبة لعدد الخواص وإلى التشكيل الذي مم ادخاله بواسطة العلاقة بين المجموعة القصيرة والمجموعة الطويلة.

فإذا حللنا الآن المنظومة الصوامتية، فاننا نلاحظ أن علامة الجهر تقيم صلة ما بين:

ت س ش خ ح

و د ز ج ع ء

تاركة خانة الصوتيات الخاصة بـ (ب، ف، ر)، فارغة.

وفوق ذلك تنضاف إلى علامة الجهر علامة التفخيم التي تدخل صلة ما بين:

ت د س ز
و ط ض ص ظ

وعلامة التشديد التي تشطر كلّ المنظومة المذكورة إلى مجموعتين متساويتين.

إن خاصتي التفخيم والتشديد في المنظومة الصوامتية للغة العربية تؤكد نزعة النحاة الأوائل لبناء نسق (Ordre) ما في لغتهم كما سبق أن لاحظنا ذلك في المنظومة المصوتية.

فاذا ما قارنا، في الحقيقة، المنظومتين المصوتية والصوامتية للغة العربية لوجدنا في الحالتين تنظيمًا يقدم شكلين متساويين، مردهما في حالة المصوتيات إلى صلة المد، وفي حالة الصوامت إلى صلة الشد التي يعيدها البعض إلى الطول أو إلى الكمية أو إلى الكثافة الصوامتية.

وأخيراً فإن وصف الفونولوجيا العربية يظل ناقصاً إذا لم يشر إلى شبهي المصوتات (و، ي)، اللذين استشارا لدى العرب عديداً من الخلافات سنأتي على تناولها في ما بعد.

الفونولوجيا في نظر العلماء العرب:

يقتضي أن نشير قبل كل شيء إلى أن الوصف السابق لا يقدم فكرة. على صعيد الفونولوجيا، عن الروابط الحقيقية للمنظومة، وخاصة بين المصوتات والصوامت التي أوضحها العلماء العرب في العصور الأولى ضمن وصفهم.

لذلك، فبعد تقديم لمحة موجزة عن الابحاث الفونولوجية السابقة على عصور الاسلام الأولى،

سنحلل الأعمال التي قام بها العلماء العرب في مجال الفونولوجيا وسنجهد في الثبوت من قيمتها.

الفونولوجيا قبل العرب :

في كتابه «تاريخ موجز لللسانيات من أفلاطون إلى تشومسكي» يؤكد ر.ه. روبنس (R.H.Robins) أن «من المنطقي بدء تأريخ الدراسات الألسنية بالانجازات التي حققها الاغريق»^(٣) والحق أن من الممكن اعتبار بداية القرن الخامس قبل الميلاد بدءاً لتأريخ الأعمال الفونولوجية التي قام بها الفلاسفة السابقون على سقراط ، ثم سقراط وأرسطو وأفلاطون الذين تابع أعمالهم الفلاسفة الرومان وخصوصاً فارون (Varron) وبريسان (Priscien) .

وما تجدر الإشارة اليه خصوصاً أن الاغريق كانوا منذ بداية القرن الخامس قبل الميلاد يستخدمون المنظومة الفينيقية لكتابة لغتهم . وكانت هذه المنظومة تقوم جوهرياً على عدم تسجيل سوى مجموع الاشارات الصوامتية بحيث يتوجب على القارئ اضافة الحركات أو المصوتات انطلاقاً من معنى الجملة المكتوبة . وباستخدام بعض الاشارات كالألف العبرية المطابقة لـ (a) الفينيقية كان الاغريق يمثلون الصوت المصوتي (a) .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن الاغريق قد صاغوا ملاحظات هامة وخاصة بتمييزهم بين الصوامت والمصوتات «فانه ليس من الممكن القول ان الانجاز الاغريقي الروماني ذو أهمية أولية في تاريخ الفونولوجيا : فقد وضع الاغريق تصنيفهم ووصفهم على وجه الخصوص بمفردات سمعية انطباعية بدلاً من وضعها بمفردات مخارج الحروف»^(٤) . أما الرومان فان أبحاثهم الالسانية تمتاز بالتصوير المجرد الذي أدخلوه في النحو الوصفي للغة اللاتينية .

ولكي نبقي ضمن حدود المجال الفونولوجي ، لنقل ان الاغريق كانوا أول من ميز بين أمرين : من جهة أولى ، الوحدات التي كانت تطابق صدور أصوات أطلقوا عليها «فونيس (Phoneis)» ، ومن جهة أخرى الوحدات التي أطلقوا عليها «سمفونا (Sumphona)» لأنها تسمع (مع) الأولى . وترجمت الفونيس في اللغة اللاتينية بكلمة (Vocalis) «مصوت» ، وسمفونا بكلمة (Consonna) «صوامت» التي احتفظت بالمعنى الأصلي للكلمة باللغة اللاتينية (Cum) و (Sonus) أي : «رن مع» .

ويخبرنا عالمُ ألسنٍ حديث هو أندريه مارتينييه (André Martinet) بدوره أن «المصوتات تمثل الصوت»^(٥) وأن الصوامت هي الأصوات التي تدرك بصعوبة دون مساعدة حركة أو مصوت سابق أو لاحق...»^(٦) ويؤكد أن «الحد بين الاثنين ليس واضحاً تمام الوضوح دوماً»^(٧)

والمدرسة الراهنة المسماة (Generativiste) أو التكوينية لتشومسكي تُخضع من جديد الصوامت

والمصوناتِ (الحروف والحركات) إلى معالجة واحدة^(٨)، توزع الوحدات إلى أجزاء منفصلة يتم تحديدها بوصفها «عقدا من الخواص الفونولوجية» خاضعة لمجموعة خصوصية من الضغوط.

ان الأجزاء المنفصلة الفونولوجية في فونولوجيا تشومسكي وهال (Halle) هي (+صامت) مثل (P,T,Q,S,Š) أو (-صامت) مثل (U,I,A). وتعرف هذه الأجزاء أيضاً بحسب الخواص الحادة التي تميز بين أجزاء (+حادة) مثل (S,S) وأجزاء (-حادة) مثل (P,T,Q)، وبحسب عدد الضغوط في ما بين الأجزاء، والشرط الذي يفيد أن أي جزء فونولوجي لا يمكن أن يكون في آن واحد (-صامت) و(+صامت) يسمح بالعثور على التمييز بين المصونات والصوامت.

أما في ما يخص العلماء العرب، فرغم أنهم تبنا في وصفهم وجهة نظر تعتمد على مخارج الحروف، إلا أنه لا يبدو أنهم أقاموا توزيع وحدات لغتهم على أنماط من المعايير التي أشرنا إليها أعلاه. فالمصطلح العربي يوزع الوحدات الفونولوجية إلى (حرف) وجمعها حروف الذي يعني الحد الأقصى للشيء، وإلى (حركة) وجمعها حركات. وتنطبق الحروف والحركات على الصوامت والمصونات كما رأينا، أما حروف المد فهي تعني، على وجه الدقة، الصوامت الممتدة أو أنصاف المصونات.

ولعرفة ما تعنيه هذه المصطلحات في نظر العرب، والعلاقات التي تربطها إلى بعضها فقد اعتمدنا على عالم مغربي تبحر في العلوم الدينية وفقه اللغة هو ابن عبد السلام الفاسي (١٧١٧ - ١٧٩٩)^(٩) الذي جهد في أن يشرح وأن يعلق على مؤلفات النحاة الذين سبقوه.

وهكذا تكرر هذا العالم الكبير كتاباً غير منشور^(١٠) لشرح مطولة منظومة شعراً في الفونولوجيا العربية عنوانها «مخارج الحروف» لأبي القاسم الشاطبي (١١٤٤ - ١١٩٦)^(١١)

والمخطوط الذي يعد ٧٣ صفحة مكرس بأكمله تقريباً لوصف حروف اللغة العربية والقواعد المتعلقة بمخارجها أثناء القول. وفي الصفحات العشر الأخيرة منه فقط انما يقوم الفاسي، معتمداً على الخواص المميزة للحروف ولحروف المد، بالتمييز بين الاثنين وبإعلامنا عن العلاقات التي تمارسها هذه الوحدات الدنيا للغة مع الحركات.

وسنحلل الآن التعاريف والعلاقات التي أوضحها مؤلفنا لنرى ما إذا كنا نستطيع أن نستخلص منها الخواص الملائمة لمنظومة ما وأن نستنتج طريقة عملها.

يبدأ الفصل الذي يحمل عنوان «باب مخارج الحروف» بتعريف الكلمات الثلاث التي يتألف منها عنوان الدراسة. يشرح المؤلف:

«باب مخارج الحروف مركب اضافي»^(١٢) العنصر الأول في هذا المركب هو كلمة «باب» التي تعني: «منفذ في الشيء يتوصل به إلى معرفته والانتفاع به». فكلمة «باب» تدخل في مركب اضافي مع الشيء المقصود حقيقة، في المحسوسات مثل: باب الدار وباب المسجد وباب المدينة، وبجازاً، في المعقولات مثل باب الإعراب وباب الطهارة. وفي الحالة التي تكون فيها الاضافة مجازية، تعني كلمة باب منفذا ينطوي على تحديد الكلمة الثانية في المركب ويكون معناه آنذاك: «منفذ في الشيء يتوصل به إلى معرفته» تشبيهاً بالباب بمعناه المحسوس الذي يسمح هو أيضاً بتحديد شيء ما والتوصل اليه.

هذا المقطع الذي لا يتصل مباشرة بالفونولوجيا العربية مهم على كل حال لدواعٍ عديدة. فهو قبل كل شيء يعطينا فكرة عن الشكل الذي تم به تحرير المخطوط: في «اسلوب برقي» كما يقال عموماً، لكنه دقيق على كل حال في ايجازه. انه الاسلوب الذي كان يلجأ اليه العلماء العرب في عصور الاسلام الأولى والذي سنعود للحديث عنه. ويستخدم الفاسي بالاضافة إلى ذلك طريقتهم في التعريف التي تعتمد أفكاراً ذات طبيعة لفظية ونحوية بل وحتى بيانية لحصر أشد الدلالات ثراءً ممكناً.

وبتابع المؤلف وفق الطريقة نفسها:

«مخارج جمع مخرج ومعناه موضوع الخروج»^(١٣). هذه الكلمة أضيفت إلى كلمة الحروف فاختصت بالاضافة وبات معناها «موضع خروج الحرف من الصوت. أي انفصاله عند توليده»، اذ - كما يؤكد الفاسي - ان الصوت «هو أصل له (للحرف) على ما سيأتي بيانه»^(١٤)

هذا التعريف للمخرج مهم لأنه يقدم لنا مفهوماً لكلمة (أصل) التي سنرى أنها متعددة المعاني ولأن مصطلح «حرف» يعيدنا إلى مصطلح «صوت» الذي يعيدنا المؤلف بتعريفه.

ويصل الفاسي الآن إلى الكلمة الثالثة من عنوان المخطوطة التي هي بالضبط كلمة «حروف»: يقول: «والحروف جمع حرف والحرف طرف الشيء ومنتهاه. ويراد بالشيء هنا الصوت. فالحرف اذن منتهى الصوت وغايته. وسمي حرفاً لأن الصوت قال فيه النظام: هو الهواء المتموج بتصادم جسمين. والهواء بالمد الفراغ. وما بين السماء والأرض الذي هو الجو والجسم اللطيف المسخر بين السماء والأرض. ولا يصح من معانيه الثلاثة المذكورة إلا هذا الثالث هنا فيكون الصوت عنده - أي عند النظام من قبيل الأجسام وعلى هذا ذهب الجعبري^(١٥) إذ قال: وما دونه الصوت. وحده هواء متموج بتصادم جسمين».

بعد أن قدم لنا المؤلف تعريفاً علمياً للحرف في معناه المادي. فانه يقترح علينا معنى فلسفياً. يقول الفاسي: «الحق أنه - أي الصوت - من قبيل الأعراض. وقال الأشعري: انه تموج الهواء. وهو وإن جعله التموج وهو عرض. فهو تسبب للصوت لا نفسه»^(١٦)

فالصوت كما يؤكد الفاسي أكثر من مجرد تموج. انه كما يقول أبو بكر الباقلاني : « كيفية تعرض للهواء المتموج عند التموج ». ويستنتج الفاسي : « الحرف اذن كيفية تعرض للهواء المتموج للقرع العنيف بمقاوم عند اعتماده في حيز خاص فهو إذاً منتهى الصوت »^(١٧).

الحروف والحركات :

وينتقل المؤلف ، بعد ذلك الجزء الذي يؤلفه الحرف ، إلى التراكيب التي يتجلى فيها . وبعد أن يعطي تعريفات لمفردات مثل «كلم» و«كلمة» و«كلام» يذكر بأن اللغة مؤلفة من ألفاظ أو من كلم موضوعة لمعان . وبذلك ينهي الفاسي تعريف عنوان كتابه ويختتم الفصل بتذكيرنا بتعريف الحروف : « فالحروف على هذا أصوات متحيزة في أحياء خاصة »^(١٨).

ان البحث الطويل ، الذي يؤلف عماد كتاب الفاسي والذي يتناول عدد أحياء مخارج الحروف وتحديد مواضعها في الجهاز الصوتي وكذلك الضغوط التي يفرضها اللسان على المستوى الجزئي ، جديرة بأن تدرس عن كتب كمي نحاول أن نستخلص منها منظومتها على المستوى التحتي . هناك محاولات من هذا القبيل يقوم بها عدد من الباحثين . وبانتظار نتائج هذه المحاولات فاننا نستطيع تسجيل الوقائع التالية على صعيد الأجزاء :

أولاً ، وخلافاً لما يمكن أن نظن ، كما يقول المؤلف ، فان كل واحد من الحروف التي تتألف منها اللغة العربية لا يطابق مخرجاً . ثم انه لفرط تداني مخارج الحروف بعضها من بعض ، فاننا قد نخلط بين الحروف فلا يفهم كلامنا . في حين أن الحروف التي تتكون في الموضوع نفسه أو في موضع قريب جداً من موضع حرف آخر انما يتميز بعضها عن بعض بصفات . ويشرح الفاسي كعادته كلمة صفات بالعودة إلى أصل الكلمة :

«وأما الصفات فهي جمع صفة.. والصفة في الأصل مصدر. وصفتُ الشيء وصفاً، وصفتُ حليته أي ذكرتُ حليته المبنية له الكاشفة عن حقيقته» .

ويستمر مؤلفنا وفق طريقته المألوفة في اعداد نظريته انطلاقاً من المعايير المستخلصة : فكما أن الحروف أصوات تتمايز في ما بينها بمخارجها كذلك فان «الصفات» التي تصفها يصدر بعضها عن طبيعة الحروف نفسها بما أن بعضها يوصف بـ(الذاتي) والبعض الآخر ، وهو الذي يرد إلى مخرجه ، يوصف بـ(الخارجي)^(١٩).

هنا أيضاً سيكون من الاسراف أن نحاول المطابقة بين هذين النمطين من الصفات ، اللذين ميزهما

الفاسي، وبين التمييز الذي قام به علماء الفونولوجيا الغربيون. لا سيما وأن مؤلفنا لا يفعل سوى أن ينقل وجهة نظر النحاة العرب في عصور الاسلام الأولى. وكل محاولة للمطابقة التامة المنظمة بين وصف النحاة العرب ووصف علماء اللسانيات في القرن العشرين ستؤدي إلى أن نخفي عنا المنظورات التي تحمكت في إعداد منظومة العرب اللغوية والتي تهمنا الآن على وجه الخصوص.

صفات الصوت :

لنلاحظ مع ذلك، وتلك ملاحظتنا الثانية، أنه على الرغم من أن العلماء العرب لم يتوصلوا إلى حد أعداد منظومة صوتية للغتهم فانهم كانوا يميزون بين قواعد القول والخواص الملائمة على مستوى المنظومة، والخصائص المنتمية إلى مجال التعبير، أي الأكثر اتصالاً بالمجال الثقافي. ولعل هذا هو الشاغل الذي بدا أنه يوجه التقسيم الذي وضعوه للصفات إلى صفات لا بد منها من أجل المحافظة على الفهم وإلى صفات ليست مما لا بد منه، وذلك سواء في اطار الصفات الداخلية أم في اطار الصفات المسماة خارجية. وعلى هذا النحو يجب تفسير هذه الجملة : «ثم انها تنقسم إلى ذاتي له وخارج عنه ضروري احتياجي وغير ضروري»^(٢٠) ويحدد المؤلف من ثم أن كل ما هو ذاتي له ضروري، في حين أن من بين الصفات الخارجية صفات ليست ضرورية : «الذاتي كله حاجي والخارجي منه الحاجي الضروري الأكيد.. وغير الضروري»^(٢١).

العلاقة بين حروف الحركة وحروف المد :

لن نحاول أن نستخلص من الوصف المفصل الذي قام به الفاسي في كتابه كيفية تمفصل البنى التي تحدد الوحدات اللغوية التي تؤلفها الحروف. وانما نفضل أن نقوم بذلك في ما بعد: لنسجل مع ذلك، وتلك هي ملاحظتنا الثالثة، أن المؤلف يعود أكثر من مرة إلى كلمة «المد»^(٢٢) التي يقابل بها كلمة «القصر». وينبئ إلى أن «المد» قد انقسم إلى «مد طبيعي» وإلى «مد فرعي». فالأول. في نظره، مرادف للامتداد، باعتبار أن حروف المد تمتد في أحياء مخارجها دون أن تصطدم بأي عقبة، في حين أن حروف المد الأخرى تطابق الكثافة التي تخرج بها الحروف في بعض الحالات. وهذا المد الأخير يمثل في الواقع «الشد» في حين أن وظيفة الأول هي التمييز بين الحروف الثلاثة : الألف والواو والياء عن الحروف الأخرى.

ان معيار المد هذا سيسمح للفاسي أن يُعد المنظومة الصوتية للغة العربية. ولتحقيق ذلك عليه أن يعثر على صيغة تبيح له أن يدمج المصوتات أو الحركات في التنظيم الذي بُدئ به مع الحروف، وسيقدم له «المد» هذه الصيغة بواسطة «حروف المد».

هذه الحروف الثلاثة ستظهر في شكلين: الشكل الأول يدبجها في منظومة «الحروف» باعتبار أن الألف والواو والياء تقوم بالوظائف اللغوية نفسها التي تقوم بها هذه الأخيرة ، وسيكون الشكل الثاني ، بمعنى ما ، نسخة غير كاملة أو موجزة عن الشكل الأول في الحركات: الفتحة والكسرة والضمة. ويشرح لنا الفاسي كيف توصل إلى هذه النتيجة في الصفحات العشر الأخيرة من كتابه الذي سنحاول أن نستشهد منه الآن بعدة مقتطفات ، وفي المقام الأول ، الاستشهاد الطويل الخاص بالجعبري الذي يذكره المؤلف بكامله :

« قال الجعبري ولنختتم الباب بثلاث مسائل :

الأولى : قال أكثر النحاة : أن الفتحة متولدة من الألف والكسرة من الياء المدية والضمة من الواو بدليل سبق عند القائل به وسنبطله ، وقال قوم بالعكس بدليل أن كل حركة إذا أشبعت نشأ منها حرف مد يجانسها ، قلت معنى هذا أن يلفظ بعد الحركة بحركة مد زائدة ، وقال المحققون لا تتولد حركة من حرف ولا حرف من حركة إذ لا يكون الذاتي مادة للعرضي ولا بالعكس .

الثانية : قال قوم الحركة سابقة الحرف لتوقف وجود الحرف المبدوء به عليها ، وقال آخرون الحرف سابقها لصحة وجوده عارياً عنها ، وقال أهل التحقيق : متقارنان لما يلزم من تقدمها وتأخرها قيام العرض بذاته .

الثالثة : قال بعضهم الحرف أكثر من الحركة ويلزمه اجتماع الضدين ، وقال بعض الحركة أكثر ويلزمه استقلال العرض وقال أهل الحق متساويان تساوي المسامحة لا المكافأة وهذا يعني ما في العقود » (٢٣) .

ويورد الفاسي بعد ذلك ثلاثة أبيات من «العقود» للجعبري . قبل أن يتناول كل واحدة من النقاط المذكورة فيها بالتعليق . ويستند في ذلك إلى حجج كبار مؤسسي النحو العربي : الخليل (المتوفى سنة ٧٩١) (٢٤) وسيبويه (المتوفى سنة ٧٩٥) (٢٥) وابن جني (المتوفى سنة ١٠٠٢) (٢٦) مناقشا إياها . ويستخلص الفاسي أخيراً من محاججته النتيجة التي هي في نظره النتيجة التي توصل إليها معظم النحاة أو كما يقول « وهو مذهب أكثر النحاة والعقل » . فحروف المد كما يقول معرضة للأكثر وللأقل (٢٧) وكل من يملك هذه الخاصة يملك حدين . لكن حروف المد لا تملك بالاستقراء سوى الحركات . فيجب إذن اعتبار الحركات بداية لحروف المد ومعنى لها .

وخلص عبد السلام الفاسي أخيراً إلى أن العقل والنقل متفقان على أن الحركات أبعاداً حروف المد ، وعلى أن تضافر هذه الأبعاد هو الذي يمنح هوية حروف المد (٢٨) .

وبعد أن يقدم لنا شرحاً عن الكميات المقارنة لحروف المد وللحركات ، بمفردات الطول والمقاطع الصوتية يستخدم مؤلفنا الشرح نفسه ليبرر استخدامه للكلمتي «سابقة» و«متولدة» .

«وحروف المد تنسب إلى الجوف باعتبار مبدئها فلتكن الحركة بعضها ، وذلك أن الهواء إذا ارتفع من الجوف فإن انتهى إلى الاعتراض في الحلق فهو الألف ، وإن قصر عن ذلك فهو الفتحة ، وإن تجاوز الحلق وانتهى إلى المتوسط في وسط اللسان فهو الياء ، وإن قصر عن ذلك فهو الكسرة ، وإن تجاوز ذلك إلى اعتراض في الشفتين فهو الواو ، وإن قصر عن ذلك فهي الضمة . فباعتبار قصورها عن مقاطع حروف العلة ^(٢٩) قيل إن الحركات أصل لها وأنها تولدت عنها لأنه يعتبر في الصوت القاصر عن المقطع أنه أضيف إليه مثله ^(٣٠) فأنتهى إلى المقطع وحصل حرف المد على الصحيح من أنه مقدر بحركتين باعتبار انتهاء الهواء . قيل في القاصر عنه أنه بعضه ومتولد عنه» .

وبعبارات أخرى يؤكد الفاسي أن صفات الأكثر ، والسابقة والمتولد لا تُفهم إلا إذا أشرنا في كل مرة إلى أي نمط من المعايير نستند إليه . وفي نظر مؤلفنا أن كلمة «أكثر» تعود إلى الأطوال المتتالية للمقاطع الصوتية التي يمثلها الحرف والحركة ، وأن كلمة «سابقة» تعود إلى اللحظة التي تتحقق فيها الحركة ، وأن كلمة «متولد» مستخدمة هنا بمعنى مجازي يدل على التعليل التالي : لما كان المقطع المساوي مرتين لمقطع حركة يعادل حرف المد ، فإن من الممكن القول أن الحركة متولدة بواسطة هذا الأخير . وسنستخلص فيما بعد النتائج المترتبة على هذا التفسير .

ومها يكن من أمر فإن الفاسي ، وقد انتهى من إيضاح طبيعة الوحدات الدنيا للغة ، سيعمل على إضافة بعض التدقيقات على تركيب الحرف والحركة في القول :

«ان اللافظ اذا دفع الهواء من جوفه إرادة المخاطبة والتكليم تموجّ الهواء لذلك الدفع ولزمته كيفية هي الصوت عند القاضي أبي بكر فان انتهى إلى حيز وقرع مخرجاً من مخارج الحلق أو الفم أو الشفتين تموجّ لذلك القرع فتكيف بكيفية هي الحرف حيث اعتبر خصوص المخرج فان قرّ الهواء في ذلك المخرج قراراً تاماً ولم يضطرب فالحرف ساكن وان لم يتم قرأه واضطرب عند الاعتماد كان الحرف متحركاً لانفصاله عن الحيز بحركة وان لم ينته إلى حيز فهو الحركة فالحركة والسكون على هذا ليس عرضين للحرف ولكن للهواء المعتمد»

ثم يقول : «وعلى هذا يكون معنى قولنا حرف محرك أتى بعده بجزء حرف من حروف المد ، واو في الضم وياء في الكسر وألف في الفتح» ^(٣١)

عند هذا الحد من عرضنا يمكننا التساؤل عما إذا كانت هذه العودة العنيدة لتأويل المصطلحات لا ترجع إلى النقص الذي كان يعتور معرفة العرب في تشريح الجهاز الصوتي وإلى جهل كامل على نحو

خاص بوجود الحبال الصوتية ووظيفتها^(٣٢). ودون أن نذهب إلى التأكيد على أن اكتشاف الحبال الصوتية كان سيعدل من طريقتهم في دراسة اللغة، فإن من الممكن الافتراض على كل حال بأن معرفتهم غير الكافية بتشريح الجهاز الصوتي قد عاقبتهم إلى حد كبير في وصفهم الذي اعتمد جوهرياً على مخارج الحروف. ولكي نظل ضمن حدود تأويل النحاة، الذين استشهد بهم الفاسي، فإننا سنقتصر على ملاحظة أن تناولهم للفونولوجيا بدا أنه يعتمد على منظور للغة علينا أن نحاول إيضاحه.

يقترح علينا الفاسي في وصفه العناصر التالية:

١ - نمطان من الوحدات: الحروف ذات الشكلين. البسيط والمزدوج أو المشدد. وحروف المد الواو والياء والألف الممثلة بالهمزة. التي يمكن أن يكون لها بالإضافة للشكلين السابقين شكلٌ موجز: الحركات، الفتحة والكسرة والضممة مع تنوع طويل أو ممدود آ.ي.و.

٢ - تتمايز هذه الوحدات في ما بينها بمواضع أو محايير مخارجها. وتُعد هذه المحايير، تسعة للحروف وثلاثة للحركات أي ١٢ حيزاً.

٣ - وأخيراً الخصائص أو الصفات التي تسمح بتمييز الحرك. أي الحروف التي تنقسم مخرج الحرف نفسه وكذلك المتشاركات أو الحركات التي تتكون في الحيز نفسه.

ومن بين الصفات التي ذكرها النحاة، والذين تتباين آراؤهم في هذا المجال، يمكننا أن نذكر الصفات الضرورية الاحتجاجية لتعريف مختلف الصوتيات، أي:

١ - التشديد الذي يسمح بتمييز الحروف عن الحركات.

٢ - الجهر الذي يميز مجموعة الصوامت الجهورية:

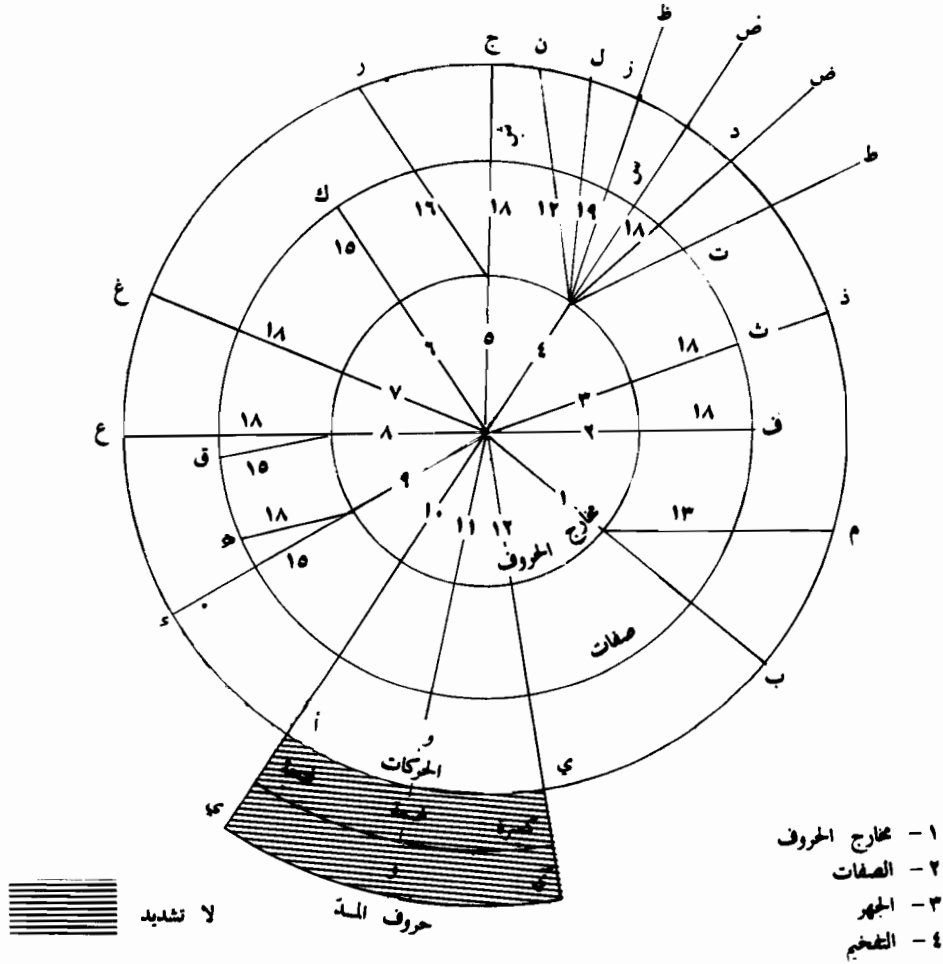
ض	ذ	س
ط	ز	ص

٣ - التفخيم الذي يميز بين مجموعتين:

ت	د	س	ز
ط	ذ	ص	ظ

٤ - الملامح الأخرى: الرخاوة، الاطباق، الغنة، التكرير، الذلاقة، والتي تميز كيفية خروج الصوتيات وتكون مع الصفات الثلاث الأولى الخواص الثمانية الأصولية للفونولوجيا العربية.

ولنلاحظ أننا إذا كنا نهتم بهذه الخواص فلأننا نحاول الآن استخلاص منظومة اللغة لا قواعد القول. وعلى هذا فان مجموع العناصر المشار إليها آنفاً تسمح لنا ببناء مسقط دائري على النحو التالي:



مسقط دائري للصوتية العربية

- ١ - في هذا المسقط الدائري تقابل خاصة التشديد بين الحروف والحركات.
- ٢ - يمثل المستوى الأول من الشجرة الدائرية الاثني عشر مخرجاً للحروف والحركات.

٣- أما المستوى الثاني فيمثل الكيفيات الست لخروج الصوت: الرخاوة، الاطباق، الغنة، التكرير، الذلاقة، التشديد.

٤- ويمثل المستوى الثالث الجهر.

٥- ويمثل المستوى الرابع التفخيم.

٦- وأخيراً المستوى الخامس الذي يميز بين الأشكال الطويلة أو القصيرة للمصوتات أو الحركات.

فاذا ما انتقلنا إلى لوحة ذات مدخلين، من ناحية الصوتيات المختلفة للشجرة مصنفةً وفق التسلسل الهجائي، ومن ناحية أخرى خواص المنظومة مرقمة، حصلنا على البناء السجلي رقم «١».

إن هذا الشكل يستخلص تمييزاً حاسماً بين مخارج الحروف من ناحية وكيفيات النطق من ناحية أخرى. كذلك، فإن من الممكن أن نسجل بدايةً تقارب خفيف يقوم بين نمطي الحروف المكتوبة بواسطة حروف المد والحركات أو المصوتات.

ونستطيع تعزيز هذا التقارب وأن نبرز «التقاطع» الذي يجعله مرئياً بتصنيف الموضوعات (أو الصوتيات) وفق نسق مخارجها الذي يظهر في المسقط الدائري الذي رسمناه آنفاً.

على أن البناء السجلي رقم «٢» ليس ملائماً بعد من حيث أنه لا يقدم لنا فكرة عن شبكة العلاقات الخاصة بالمنظومة الصوتية الموضحة في المسقط الدائري.

ولوصل دائرة علاقات المنظومة والتحقق من عملها، فقد لجأنا إلى السجل القابل للتنظيم، الخاص بالبروفسور جاك بيرتان (J. Bertin) الذي سمح لنا بالتوصل إلى البناء السجلي رقم «٣».

إن خطوط هذا البناء في منتهى الأهمية لأنها تصور المنظومة التي أدرجت فيها كلُّ الصوتيات.

والحق أننا انطلاقاً من النقطة (آ) في أسفل الشكل إلى اليمين، وبواسطة مجموعة من التعارضات المتتالية نستطيع التوصل إلى النقطة (ب) في الوسط وإلى اليسار، بعد أن نقوم بالمرور بكل الصوتيات.

وفضلاً عن ذلك فاللوحة الثالثة تُظهر أن معيار «المد» و«الشد» \pm ، بالنسبة للحروف وللشكليات القصير والطويل بالنسبة لحروف المد، يهيمن على كل منظومة اللغة العربية.

		الحروف																										الحركات				
		١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١
حروف المد	١	■																														
	٢																															
	٣			■																												
	٤		■																													
	٥			■																												
	٦				■																											
	٧					■																										
	٨						■																									
	٩							■																								
	١٠								■																							
	١١									■																						
الفن	١٢																															
	١٣ - الفتحة																															
	١٤ - الضمة																															
	١٥ - الألف																															
	١٦ - الكسرة																															
	١٧ - المجرى																															
	١٨ - الرعدة																															
	١٩ - اللزقة																															
	٢٠ - السدة																															
	٢١ - المعسر																															
	٢٢ - السدة																															

البناء السجلي رقم (١)

		الحروف																												الحركات						
		١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١				
حروف المد	١	ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ق	ص	غ	ظ	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ق	ص	غ	ظ
	٢																																			
	٣																																			
	٤																																			
	٥																																			
	٦																																			
	٧																																			
	٨																																			
	٩																																			
	١٠																																			
	١١																																			
الفن	١٢																																			
	١٣ - الفتحة																																			
	١٤ - الضمة																																			
	١٥ - الألف																																			
	١٦ - الكسرة																																			
	١٧ - المجرى																																			
	١٨ - الرعدة																																			
	١٩ - اللزقة																																			
	٢٠ - السدة																																			
	٢١ - المعسر																																			
	٢٢ - السدة																																			

البناء السجلي رقم (٢)

	خ	ث	ذ	س	ص	ز	ح	ج	ص	ط	هـ	د	ل	ظ	ف	و	ن	ب	ي	م	ك	ح	غ	ش	ق	ر	و	ي	ي	أ
١٩ - الدالة																														
٢ - محرج الحرف																														
٣ - محرج الحرف																														
١ - محرج الحرف																														
١٣ - الفة																														
٦ - محرج الحرف																														
٧ - محرج الحرف																														
٨ - محرج الحرف																														
٢٢ - التشديد																														
٤ - محرج الحرف																														
١٧ - الحسرة																														
١٤ - التفتيح																														
١٨ - الرخوة																														
١٥ - الأطلاق																														
٥ - محرج الحرف																														
٩ - محرج الحرف																														
١٦ - التكرير																														
٢١ - القصر																														
٢٠ - المد																														
١٠ - محرج الحرف																														
١١ - محرج الحرف																														
١٢ - محرج الحرف																														

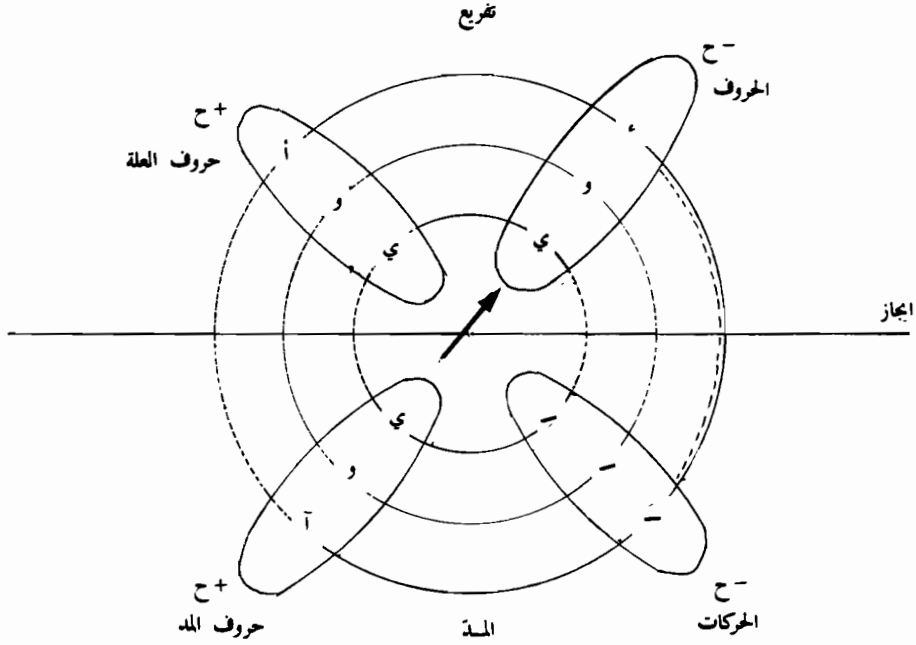
البناء السجلي رقم (٣)

فانطلاقاً من هذا المعيار نتوصل إلى شكلين متناظرين كل منهما بـ ٢٨ وحدة، أحدهما يحمل العلامة (+) والآخر العلامة (-) (-ح، +ح).

أما المعيار الثاني لمخارج الحروف فيميز في (-ح) ثلاثة حروف لا تعتمد على مخارج في هذه المحايير وإنما لتحيز ببساطة في ثلاثة محايير (١م) للكسرة، و(٢م) للواو، و(٣م) للياء.

ويطابق حروف المد الثلاثة هذه الشكل الموجز للحركات الثلاث كما تطابق هذه الحركات الثلاث الأجزاء الثلاثة آ، و، ي التي تساوي ضعف الأجزاء الأخرى والمشبّهة بحروف المد.

ونستطيع أن نصور ما سبق في الشكل التالي:



يستخلص من الشكل أعلاه أن المنظومة الصوتية للغة العربية تبدو متفرعة تفرعاً ثنائياً. كما يمكن لنا ملاحظة ذلك بعد التقطيع اللفظي إلى فرعين: حروف وحركات. والواقع أن المنظومة تنتظم بأجمعها من حول شكلين. متناظرين تماماً. للحروف والحركات. هذا التناظر ظهر لنا منذ بداية هذه الدراسة بعد استخلاصنا للوحدات اللغوية الدنيا بمقتضى منظور علم الألسنيات الغربي.

أما المنظومة التي نستخلصها الآن بمقتضى منظور النحاة العرب فتكشف لنا عن عامل سائد ثان هو التزعة «الاتحادية» التي تعمل على الحد من التفرع الثنائي القائم. وهذا ما يُستخلص بوضوح من الشكل السابق. إذ بعد أن كرس النحاة جهودهم لاقامة علاقة بين حروف المد والحركات. مؤكدين أن حركتين تساويان حرف المد الذي يطابقهما. فقد نجحوا في الحد من. كي لا نقول في الغاء، الثنائية (حرف/حركة). وفي إعادة الوحدة للمنظومة بواسطة معيار «المد» الوحيد.

الا يتوصل معيار «المد» هذا بمعنييه الاثنين: التفرع بالنسبة للحروف والمد بالنسبة للحركات. إلى أن يدمج ثنائية المنظومتين الجزئيتين، المصوتية والصوامتية، في مجموع واحد منظم؟.

الوظائف التي خص بها العرب الفونولوجيا الخاصة بهم:

ربما استطعنا أن نعثر على سبب هذا المنظور المتناقض في الظاهر من خلال البحث عن الوظائف

التي خص بها العرب الفونولوجيا الخاصة بهم .
فبمقتضى الدراسة التي قدموها لنا ، نستنتج أنهم أرادوا القيام بوصف للغة العربية يهدف في آن واحد إلى بحث عن الملامح التي يمكن أن تحدد مجموع الأجزاء المكونة للغة وإلى بداية تنظيم يسمح بتحديد الواجبات الخصوصية التي تمارس على صعيد القول .

يضاف إلى ذلك أن النحاة وفقهاء اللغة كانوا يعتمدون ، في وصفهم ، على كلمات مستعارة من مختلف لهجات القبائل ، كما كانوا يأتون بشواهد من الشعر^(٣٣) محافظين بذلك على حجم استخدام اللغة العربية سواء من وجهة نظر القبائل المختلفة أو من حيث اتساع الدائرة الجغرافية المستخدمة فيها من ناحية أو المجالات التي تستخدم فيها والمفاهيم التي كانت قادرة على التعبير عنها من ناحية أخرى . ويتج عن ذلك أن اهتمام هؤلاء العلمي كان يلتقي مع الوظائف التي خصوا اللغة بها ، وهي جمع مختلف القبائل من حول لغة واحدة والرقى بمستخدمي هذه اللغة إلى مرتبة تجعلهم فوق الجماعات الأخرى التي سيدخلون في صراع معها والتي كان يتوجب أن يسيطروا عليها .

وهكذا ، ففي حين كان النحاة يجهدون في ارساء قواعد معيار لغوي موحد ، انصرف فقهاء اللغة إلى أن يوجدوا له جذوراً في الأساس الثقافي المشترك بين أوساط متعددة تنتمي إلى مختلف مجالات الحياة : مجال النشاط اليومي ، ومجال الأفكار القادرة على التعبير عن مفاهيم ثقافية . وأخيراً فإن إجماع فقهاء الاسلام ينصب بوجه خاص على الارتقاء باللغة العربية وبالإلمام العربية إلى درجة التقديس . ولهذا فإن مجموعة العلماء الذين يطلق عليهم «المحققون» كانت تسهر باخلاص على أن تكون الأطروحات التي يقدمها اللغويون في ذلك العصر منسجمة مع معطيات القرآن والسنة ، أي مع الأرثوذكسية الاسلامية في الوقت نفسه الذي كانوا يتعاونون فيه جميعاً من أجل توحيد اللغة بتحديدهم «القراءات» المقبولة في القرآن^(٣٤) .

كان على هذا المشروع الهائل الهادف إلى الارتقاء باللغة والصادر عن تراث مشترك ، غير المنقطع عن الحياة ، والقادر على التكيف مع التعبير عن كل الفعاليات الانسانية ، لكي يؤمن استمرار الخواص التي أشرنا إليها ، أن يحدد للغة وظيفة تعليمية ، وهي الوظيفة نفسها التي خص الاغريق بها اللغة من قبل .

والحق أنه حين كان سقراط يسأل كراتيل عما يفكر به حول «فضيلة الأسماء والعمل الصالح الذي يقدر وجوب اناطتها به» أجابه هذا الأخير : «أن تعلم .. اذ عندما نعرف الأسماء نعرف الأشياء أيضاً»^(٣٥) . كذلك فإن عبد السلام الفاسي يخبرنا عن فائدة عمله مؤكداً :

«تناول مني أيها الطالب مخارج حروف المعجم التي هي كالموازين التي تقتضي بها الحقوق وتعرف بها مقادير الأشياء عن استقامة وزيادة ونقص لتستعين بها على اخراج الحروف من مخارجها المعينة لها من

غير زيادة ولا نقص... فتعرف لذلك حروف القرآن الذي هو عنوان السعادة وقائد العبد إلى رضى سيده وتغنى ما أعد الله على ذلك من رضوانه ويتفنى عنك اللحن فيه الذي أمرنا باجتنابه والتحفظ منه وتوعدنا على ارتكابه وترك السعي فيما ينفيه عنا فتحصل على امتثال الأمر في الاجتناب المذكور.. ثم كمل بقوله وبصدق اختبارك الدرهم عند سماع صوته رديته وجيده فكذلك الحرف يعرف صحيحه من فاسده بسماع صوته بقوله وعند صليل الزيف السخ..» (٣٦).

وشأن تلميذ سقراط الذي يقدمه لنا أفلاطون في «كراتيل»، يعمل الفاسي كما نرى جيداً للقبض على قيمة الأشياء، إلا أنه في حين أن كراتيل لا يتمسك بتحديد العلاقة بين الأسماء والأشياء إلا من أجل أن ينفذ إلى حقيقتها فإن العلماء المسلمين يضيفون إلى ذلك أن البحث عن الحقيقة أمر الهي يجب اتباعه إذا شئنا أن ننال ثواب الآخرة.

هذه الفضيلة الدينية التي يضيفها العرب على معرفة اللغة تخفي إلى حد ما كل الفوائد التي كان النحاة يتوقعون استثمارها من أعمالهم والتي اقتصر الفاسي على الإشارة إليها بسرعة.

إن اختصاصي الاشتقاق (٣٧) يدرس الانسجام بين الألفاظ والمعاني الذي يمكن أن نستشفه بين (خضم) مع (خاء)، التي تعني أكل غذاء طرياً، و(قضم) مع (قاف)، عندما يكون الغذاء قاسياً. أو في استخدام كلمة (نضج) مع (حاء) للتعبير عن الرش الخفيف و(نضخ) مع (خاء) عندما يكون البلل شديداً. هذه الضروب المختلفة من الاستخدام تبحث في الواقع عن الانسجام بين الألفاظ والمعاني بحيث تنسجم الحروف القوية مع المعاني القوية. وثمة ملاحظات أخرى، أشار إليها أيضاً النحاة الذين ذكروهم الفاسي في كتابه حول الامكانيات الموسيقية للكلمات على الرغم من أن ذلك لا علاقة له بالنحو. ومن المؤسف أن الجهود المبذولة في هذه الاتجاهات المختلفة لم تجد من يتابعها بين العلماء اللاحقين. ولا بد من انتظار عشرة قرون حتى نشهد علماء اللسانيات الغربيين يتعمقون في هذه الاتجاهات بمنهج وتقنيات مرهفة.

النتيجة :

آن لنا الآن أن نتساءل عما إذا لم يكن بوسعنا، على الرغم من الاتجاهات المشتركة التي أشرنا إليها بين علماء الألفاظ والنحاة العرب بدءاً من القرن الثامن وبين اللسانيين الغربيين في القرن العشرين، أن نشير إلى اختلافات في المنظورات في تحديد الإطار المفهومي للدراسات؟

لقد رأينا علم اللسانيات الذي سبق المدرسة التكوينية (Générativiste) لم يعمل على تحقيق تقديم وحيد لصوتيات اللغة. حقا أن من الممكن لها أن تبنى انطلاقاً من مفاهيم الصوامت ومن

المصوتات، لكنها تبقى دوماً مضمرة. ومهمة علم الألسنيات أن يسجل التنوعات البنيوية بين مختلف اللغات ويرفض لنفسه البحث عن دلالات تقع خارج الاطار المفهومي المحدد.

هذه التزعة الوصفية للغة لم تفعل سوى أن تخصصت في علم ألسنيات السنوات الأخيرة هذه. ويؤكد كل من تشومسكي وهال عند تحديدهما للاطار العام للنحو التكويني أن «الدراسة الوصفية للغة ما تهدف إلى بناء النحو. ويمكننا تصور اللغة على أنها مجموع من الجمل يمتاز كل منها بشكل صوتي مثالي وتفسير ذي معنى داخلي مشترك. ان نحو لغة ما هو منظومة القواعد التي تخصص هذه العلاقات وتحدد معانيها»^(٣٨).

ومع اعترافها بأن «الاتقان»، أي ما يحققه اللفظ - السامع فعلياً، يقوم، لا على المعرفة التي يملكها عن اللغة وإنما على عوامل أخرى مثل حدود الذاكرة والانتباه والتسليّة والمعارف والاعتقادات غير اللغوية.. الخ، فإن المؤلفين يتصوران دراستها بدءاً من لفظ - سامع مثالي لا يتأثر بعوامل من هذا النمط، وهي عوامل لا تتضمن صلة نحوية ما نظراً لمفهومه عن النحو.

ويستخلص مما سبق، بوضوح تام، أن تناول المؤلفين لمبادئ الفونولوجيا التكوينية يتباعد عن تناول العلماء العرب في العصور الأولى الذين حاولنا التحدث عنهم. والواقع أنه في حين أن هؤلاء الآخرين يحاولون تجريد حقيقة لغوية عينية لخصائص اللغة العربية، التي درست في لحظة متميزة من تاريخها، فإن الالسنين المحدثين يحاولون «تطوير نظرية للغات الطبيعية بوصفها، كذلك، منظومة من الفرضيات تمس الخصائص الجوهرية لكل لغة انسانية»^(٣٩). وهكذا فإنها يدرسان في كتابها عن «مبادئ الفونولوجيا التكوينية» نظرية العموميات الصوتية، أي ذلك القسم من علم الألسنيات العام الذي يخصص طبقة «التجليات الصوتية الممكنة» للجمل بتحديد المجموع العام للخواص الصوتية والشروط الخاصة بتركيبتها الممكنة.

لقد اجتذبت نظرية علم الألسنيات العام التي طرحتها المدرسة التكوينية عددا من المستشرقين الشباب الذين اعتنقوها. فجورج بوآس (G. Bohas) مثلاً، يدرس اللغة العربية في العصور الأولى بصبا في قالب موضوع انطلاقاً من «التجليات الصوتية الممكنة» التي أعدها التكوينيون الأميركيون. ولا شك أن هذه الأبحاث ستسهم في تقديم تحليلات دقيقة عن اللغة العربية بأدوات عمل مهمة بالنسبة للمستشرقين. على أنه لا يجب لهذا التدخل في اللغة العربية، انطلاقاً من «منظومة فرضيات»، أن يمنعنا من أن نقابل في كل لحظة بين النتائج التي حصل عليها علم الألسنيات وبين مجالات البحث الأخرى التي تتناول العالم العربي تحت طائلة الوقوع في متاهات النظريين التي كشف عنها بلاشير لدى علماء العصور الأولى: فنظرية العلماء المسلمين، كما يؤكد، هي نظرية المناطقة الذين اذ يبدؤون من مقدمة انما يستخلصون منها النتيجة منتين إلى اعتبارها صارمة صرامة العقيدة^(٤٠).

على أنه ليس من مقاصد علم الألسنيات العام، القائم على اطار مفهومي قنا بعرضه سريعاً أن يبيّن منظومة مثلى تعبر عن مجموع الظواهر الخاصة بمختلف قطاعات علم الألسنيات ولا أن يدرس فضلاً عن ذلك العلاقات التي تمارسها هذه القطاعات فيما بينها وبين المجالات الأخرى. فهناك فروع علمية أخرى تعمل على أن تقدم فكرة عن ثراء المدلولات أو عن خصوصية اللغات. فالسيميائيون والانثروبولوجيون والسيميوتيون مثلاً سيدمجون في المنظومة القيم الثقافية أو الفردية التي يتجاهلها علم الألسنيات. وعلى المستشرق أن يبيّن تركيباً لكل النتائج باقامته مواجهة «العام» و «الخصوصي».

ويبدو أن عالم الأحياء دانشان (A. Danchin) يكشف مع ذلك عن القصور الذي ينطوي عليه كل تعميم حين يقول بمناسبة السيميائية: «انه الانعكاس المتميز للتاريخ الثقافي وللتاريخ الفردي، فهو يخط ذكرى التعلم، التعلم من الوسط الخارجي الذي يسهم في التكوين المتعاقب للهوية الفردية. كل شيء هنا ظرفي. ويسعنا حسب مستوى التحليل، أن نجد أشد اللغات فقراً وعمومية في بلد ما، وعلى سبيل المثال، نستطيع أن نعرف، على مستوى أكثر غنى من الدلالات نسبياً، على لهجة ما اذا ما تابعنا زيادة المعنى، (وبالتالي الحد من حيز تطبيقه) وأن نجد خصوصيات تعبير وأداء هي من عمل جماعة صغيرة، ثم تظهر اللغة العائلية بمهارتها وإماحتها، وأخيراً يظهر المعنى المحض بالنسبة لمن يتكلم، المعنى الفردي، غير القابل للتوصيل. والذي يستطيع أن يؤدي اذا ما استُخدم على هذا النحو إلى الجهد الشعري، حيث يغدو غير القابل للتوصيل حدةً للتبادل. ان وضع هذه البنى المتشابكة في علاقات (باللغة الآلية التي تخلق التعقيد) يسمح بانتاج مجموع يتحاور أحياناً، بالصدفة، وهو مجموع أعلى كيفياً (في التعقيد) من عناصره»^(٤١).

ولنلاحظ بشكل عابر أن مفهوم الذكري، ومفهوم الهوية الفردية يترددان كثيراً على ألسنة العرب. ولكن لكي نعود إلى الوصف الصوتي الذي حاول العلماء المسلمون في العصور الأولى أن يقدموه لنا للغتهم والذي حاولنا القبض عليه من خلال كتاب عبد السلام الفاسي، فاننا نقول ان هذا الوصف يقع بالنسبة لمنظور علماء الفونولوجيا. على المستوى الذي يظهر فيه «المعنى المحض»، وذلك لأنه قد استخلص من حقيقة فريدة على الصعيد التاريخي أو على الصعيد الظرفي والانساني، باعتبارها تقوم على الوحي القرآني كما عبر عنه النبي محمد (ص) والذي يغدو فيه غير القابل للتوصيل، كما هو الأمر لدى الشاعر، حدّاً تبادلاً.

يضاف إلى ذلك أنه، من أجل حماية غير القابل للتوصيل هذا، انصرف العلماء العرب إلى وصف التعبير آملين من ذلك استبعاد كل تغيير محتمل وبهدف أن يؤمنوا انتقاله وانتشاره بشكل جيد. وكما هو الأمر بالنسبة لمبدع الشاعر الذي نهدف فيه لادراك غير القابل للتوصيل الناتج عن تعقيد

مجموع فريد يجب الكشف عن هويته، كذلك فانه عبر دراسة التعبير انما تظهر مدلولات القرآن الظاهرة والمضمرة، وبعكس طريقة عالم الألسنيات الحديث الذي إذ يعتمد على مدلولات تنتمي إلى أفقر مستويات اللغة لأنها الأكثر عمومية، انما يبني الخواص التي تميز المفاهيم الصوتية المحتملة، فان الطريقة التي استخدمها العرب من خلال تعبير فريد يتم القبض عليه في كثافة حقيقية غنية بالممكنات، تهدف إلى أن تستخلص شبكة العلاقات التي ستوضح طبيعة المدلولات الصادرة عنها، وفق طريقة السميوتيك المعاصرة، لكن هذه الطريقة قد كبحت في جزء منها على الأقل بالمبدأ الأولي الذي أعلنوا عنه منذ منتصف القرن الثامن والذي يوجد بمقتضاه نموذج لغوي، أو شكل ثابت وكامل للغة العربية يقابل خليط اللهجات.

واذا كنا مرغمين على الاعتراف بالطابع غير المنتظم للوصف الصوتي الذي قدمه العلماء العرب في العصور المشار إليها، فان علينا أن نسجل مع ذلك أنهم عملوا على الحفاظ على أشد اللغات دلالة، ساهرين على ابراز التضامن الذي يربط مختلف عناصرها.

ولعلنا نستطيع أخيراً أن نقول أن إرادتهم بناء نظرية للتعبير اللغوي، اعتباراً من شهادة وحيدة على لغتهم تقوم بدور «النموذج» للجماعة الإسلامية، يمكن أن تدل على أنه بعد أمد وجيز من فترة الوحي، عمل العرب على أن يسجلوا العلاقات التي تمارسها اللغة العربية مع الاسلام، المصدر الثقافي الأصولي، وانه على الرغم من الجهد الهائل في التجريد الذي قام به علماء تلك الحقبة، فان هذه الإرادة قد حالت بينهم وبين التوصل إلى إعداد منظومة أمكن لنا مع ذلك بناءها بوقوفنا على صعيد أعمق من ذلك الذي وقفوا عليه في تحليلاتهم.

هوامش

- ١ - راجع: تحليل نصي للفصل الأول من كتاب «الأباء» لطلح حسين. أوديت بني. مجلة المعرفة. العدد ١٨٢/١٩٧٧
- ٢ - حسب تعريف أندريه مارتينييه المذكور في ما بعد.
- ٣ - للتعرف على الفونولوجيا عموماً، راجع: (مبادئ الفونولوجيا) N.S. Troubetz-Koy, Principes de Phonologie
- أندريه مارتينييه: La description phonologique, avec application au parler franco-provençal d'Auteville (Savoie), Geneva, Droz et Paris, Minard, 1966.
- وحول الوصف الفونولوجي، راجع: Eléments de Linguistique Générale
- الفصل الثاني، وحول وصف اللغات، ص ٣٤-٥١. والفصل الثالث حول التحليل الفونولوجي والفونولوجيا الوظيفية.
- حول الفونولوجيا العربية، راجع: Cantineau J., Esquisse d'une phonologie de l'Arabe classique, in Bulletin de la Société de Linguistique de Paris 43 tome fasc. I No.126 Klincksick 1947, P.93, 140.
- Nada Tomich Le parler Arabe du Caire, Paris 1964, Mouton et Co.
- وحول المقارنة بين فونولوجيا اللغة الفرنسية وفونولوجيا اللهجة المصرية راجع:

Petit O., Phonetisme français et Phonetisme arabe, Paris, BELC, 1967 (Polycopie).

٤ - راجع : Grammaire Larousse du Français Contemporain
J. Chevalier, C. Blanche — Benveniste, M. Arrivé et J. Peytard, 1964, P.13, 14.

٥ - مبادئ الفونولوجيا.. ص ٤٧

٦ - المرجع السابق، ص ٤٨

٧ - المرجع السابق ص ٥٠ وكذلك ص ٧٤ حيث يؤكد مارتينييه أن الصوتية والمقطعية هما خاصة واحدة. ومن المفيد عموماً أن نميز بين منظومة المصوتات ومنظومة الصوامت. فما نعينه بالصوامت والمصوتات ليس مجرد ظهورهما في نص واحد. أي تقابلها. وإنما تتابعها الواحد بعد الآخر على مدى القول، أي تضادهما.

٨ - راجع ن. تشومسكي وم. هال، مبادئ الفونولوجيا.

٩ - أي أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن محمد بن عبد السلام بن أبي حميد. ولقبه القاسي. ولد في فاس عام ١١٣٠ هـ/١٧١٧ م وتابع دروس فقيه اللغة أبي حفص عمر بن عبد الله بن عمر بن يوسف بن العربي (توفي سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م بعد أن كان قد تعلم القراءات السبع للقرآن. وبعد أن قام بسفرة طويلة في شمالي البلاد لاتمام علومه القرآنية. عاد إلى فاس لدراسة الأدب والعروض والتاريخ وعلم الانساب. كما تابع دروساً في المنطق والتفسير والفقه والحديث والحساب وعلم الفرائض الذي يحدّد توزيع الميراث. ثم ذهب إلى مدينة سوس ليواجه بمعارفه معارف العلماء الآخرين فيها وليقوم بمهنة التعليم بدوره. وتوفي عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين. ودفن بالقرب من باب الفتوح في مدينة فاس.

وقد ترك عدداً من المصنفات تتضمن شرحاً وتعليقاً على مؤلفات العلماء الذين سبقوه. (راجع ادريس السفروشي. اطروحة للدكتوراه الحلقة الثالثة، ١٩٧٧ ص ١٦.

١٠ - حققها ادريس السفروشي.

١١ - القاسم بن فرج بن خلف بن أحمد أبو القاسم الشاطبي الرعيني، ولد في الشاطبة (اسبانيا) عام ١١٤٤/٥٣٨ هـ وتوفي في القاهرة عام ١١٩٦/٥٩٠ التي كان يدرس فيها القراءات في المدرسة الفاضلية. وهو ناظم قصيدتين تعليميتين: اللامية والرائية. الأولى هي نظم لكتاب الداري والمسماة (التيسير) حول القراءات والتي عرفت باسم الشاطبية.

١٢ - مخارج الحروف ص ١

١٣ - م س ص ١

١٤ - م س

١٥ - م س ص ٢

١٦ - م س ص ٢

١٧ - م س ص ٢

١٨ - م س ص ٣

١٩ - م س ص ١٥

٢٠ - م س ص ١٥

٢١ - م س ص ١٥

٢٢ - م س ص ٧٣

٢٣ - م س ص ١٣٤

٢٤ - أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي (١٠٠-٧١٨/١٧٠-٧٨٦) وهو مؤسس علم العروض. وكان استاذاً لسيبويه. ولد ومات في البصرة حيث عاش فقيراً. ألف «كتاب العين» حول اللغة. وكتاب «معاني الحروف» و«العروض» و«النغم».

٢٥ - أبو بشر عمر بن عثمان الملقب سيبويه (١٤٨-٧٦٧/١٨٠-٧٩٦). يعتبر امام النحاة. كان أول من وضع أسس النحو بوصفه علماً. ولد في شيراز وجاء الى البصرة ليتابع دروس الخليل. وألف كتابه الشهير (الكتاب) الذي يعتبر نموذجاً في بابه. ثم ذهب إلى بغداد لمناقشة الكسائي. ومات في الأهواز.

٢٦ - أبو الفتح عثمان الموصلي (توفي ٣٩٢/١٠٠٢). كان أحد أئمة النحو واللغة. كما كان شاعراً. ولد في الموصل ومات في بغداد. ألف عدة كتب في نقد الشعر وخاصة حول المتنبي وفي الاشتقاق وفي قراءات القرآن وكتباً في اللغة ككتاب (سر الصناعة) و (الخصائص) و (التصريف اللوكي).

٢٧ - مخارج الحروف ص ١٣٦.

٢٨ - المرجع السابق ص ١٣٧.

٢٩ - المرجع السابق ص ١٣٨.

٣٠ - المرجع السابق ص ١٣٧.

٣١ - المرجع السابق ص ١٣٨.

٣٢ - موسوعة الاسلام. مادة تشريح. ص ٧٢٥-٦.

٣٣ - ر. بلاشير (R. Blachere). «تاريخ الأدب العربي. من الاصول حتى نهاية القرن الخامس عشر». وزارة الثقافة. دمشق ١٩٧٤. يكشف بلاشير عن مثالب جمع الشعر ويمكن أن نضيف إلى ذلك ولع التحويين بالغريب الذي كبح جهد التجريد الذي كان يقوم به علماء ذلك العصر.

٣٤ - حددت القراءات بسبع وأتاحت دراستها ظهور علم القراءات الذي درسه معظم العلماء. راجع في ذلك بلاشير. Introduction au Coran Paris 1947, P. 103-130

٣٥ - أفلاطون. المؤلفات الكاملة. الجزء الخامس. القسم الثاني. كراتيل. Cratyle Paris, Les Belles Lettres, 1931, P.130.

٣٦ - مخارج الحروف ص ٢٣.

٣٧ - مخارج الحروف ص ١٨.

٣٨ - راجع : Chomsky et Halle, Principes de Phonologie Generative, P.21.

٣٩ - المرجع السابق ص ٢٤.

٤٠ - أحاط بلاشير في تاريخه للأدب العربي بالأسباب الباعثة على الدراسات النغوية في العصور الأولى: «لم تولد الدراسات النحوية واللغوية الأولى أبداً من الرغبة في تحديد بنى ووظائف اللغة العربية. وإنما من الحاجة الماسة لقراءة النص القرآني. وتجلت مع الحيل الذي عاصر الخليفة الأموي عبد الملك (٦٥-٦٨٥/٨٦-٧٠٥) لدى قراء القرآن نزعة نحو قواعد القراءات المختلفة للقرآن».

ولا بد من الإلحاح أيضاً كما أشار إلى ذلك بلاشير أيضاً على الشروط التي دعمت الجهود الجبارة التي بذلت في هذا المجال ونعني بها: انبعثت لغات مختلفة كالسنسكريتية والفارسية واليونانية والهندوسية التي استلزت التفكير وسهلت جهد التجريد الذي برهن عليه علماء القرن الرابع الهجري.

٤١ - راجع : A. Danchin, Stabilisation fonctionnelle et épigenèse, une approche biologique de la genèse de l'identité individuelle, in "L'Identité", Paris, Grasset, 1977, P.207.